

قراءة نقدية لتصورات الجسد في الفكر الحديث

د. بوغندوستة سهام د. ليتيم ناجي

جامعة سكيكدة

الملخص

الجسد هو كيان يحدد معالم الهوية الفردية والجماعية، ونظرا لأهميته البالغة فقد كان محل اهتمام لدى العديد من العلماء والمفكرين، حيث خصصوا له مساحة هامة ضمن حيز بحوثهم ودراساتهم، وقد اتضح ذلك في أكثر من مجال علمي ومذهب فلسفي.

تنوع واختلاف تمثيلات الجسد باختلاف المفكرين واختلاف مرجعياتهم الثقافية والعلمية دفعنا إلى تتبع مختلف مراحل تطور تمثيلات الجسد في العصر الحديث فكانت البداية مع الفكر الديكارتي والفكر الفينومينولوجي ثم المرور إلى فلسفة كل من نيتشة وفوكو وصولا إلى علماء النفس على غرار "فرويد" و"لاكان" و"شيلدر" وأخيرا الفكر السوسيولوجي والأنثروبولوجي الذين تجسدا في مقاربة "بيار بورديو" حول تمثيلات الجسد.

مقدمة:

يظهر الجسد في الفكر اليوناني كسجن للروح، علما أن هذا السجن لا يمكن التخلص منه إلا بالموت. لأن حالة الموت هي مرحلة الخلود التي تستحقها الروح بعد فناء الجسد، الذي لا هم له سوى الانشغال بالملذات، بينما تسعى النفس إلى بلوغ درجة الحكمة والعلم. مثل هذه الأفكار التي تحتقر الجسد البشري يعتقد بها كل من أفلاطون وأرسطو، يتضح ذلك جليا في قول أفلاطون على لسان أرسطو "إن قضيتي الوحيدة هي أن أجوب الشوارع لإقناعكم جميعا شبابا كنتم أم شيوخا بألا تعولوا على الجسم وعليكم بالنفس سعيا إلى جعلها خيرة ما استطعتم"¹، ثنائية الروح والجسد التي ترمز إلى تقديس الروح مقابل تدنيس الجسد في فلسفة سقراط و أفلاطون أقر بها أرسطو لكنه لم يفاضل بين طريقي هذه الثنائية لأنه يعتقد بأن النفس ليست إلا صورة الجسد وأداة لوظائفه إذ أنها تشمل مجموعة من القدرات كالإدراك والتخيل والتفكير وفي هذا الصدد يقول أرسطو "يحسن تجنب القول أن النفس تتعلم أو تفكر بل قل أن الإنسان هو الذي يفعل ذلك بفضل ما به من نفس"².

من الواضح أن الجسد كان مهشما في الفكر اليوناني فهل استمر هذا التهميش في الفكر المعاصر أم أن الفكر المعاصر قد حمل معطيات جديدة ساهمت في رد الاعتبار للجسد خاصة في ظل الازدهار المعرفي والعلمي الذي نتج عنه ظهور علوم جديدة انفصلت عن الفلسفة، لتفرض منطقا جديدا ورؤية مختلفة للكون والإنسان أهم هذه العلوم هي علم النفس وعلم الاجتماع الذين تركز اهتمامهما حول كل ماله صلة بالفرد والمجتمع، وقد حظي الجسد البشري باهتمام الباحثين في علم النفس وعلم الاجتماع ولم يعد موضوعا تحتكره الفلسفة والطب و البيولوجيا .

لتقديم تفاصيل أكثر حول تصورات الجسد في الفكر الحديث سوف نقدم قراءة نقدية لملامح هذا الفكر في بعده الفلسفي من جهة وبعده السيكولوجي والسوسيولوجي من جهة أخرى .

2- الجسد في التصورات الحديثة:

❖ فلسفة الجسد:

الجسد عند "ديكارت":

يختلف الجسد في التصورات الحديثة عن الجسد في التصورات التقليدية حيث يمتزج بالكون والطبيعة، فالجسد الحديث جسد عقلائي يبني الحدود بين فرد وآخر. إنه جسد أملس معنوي، بلا خشونة، محدود ومتحفظ اتجاه كل تحول محتمل، جسد مفصول عن الآخرين الذين هم في وضعية خارجية مع العالم ومنغلق على ذاته. على³ إذن فالتعريف الحديث للجسد يتضمن أن يكون الإنسان مقطوعا عن الكون، مقطوعا عن الآخرين ومقطوعا عن ذاته، فالجسد هو ما تبقى من هذه الانسحابات الثلاثة.

هذه التصورات الجديدة للجسد عرفها عصر النهضة الأوروبية حيث بدأ التفكير العلمي العقلاني يفرض وجوده، فلم يعد تشريح الأجساد لأغراض طبية من المحرمات بل أصبح علامة تطور وتقدم وأنّ المقدس ارتبط بالروح ولم يعد مرتبطا بالجسد بعد أن انفصل عنها في الفلسفة الديكارتية.

فلسفة ديكارت عبّرت عن فلسفة مجتمع عصره، وهو يمجّد الفكر والعقل ويفصلهما عن الجسد المحقر الذي وصفه ديكارت حين اعتبر نفسه أولا أنّ لديه وجهها، يدين وذراعين وكل هذه الآلة المؤلفة من عظم ولحم، تقوم بأعمال أحالها إلى الروح. اعتقاد ديكارت بأن الجسد مجرد آلة عبر عنه في أكثر من مناسبة ويتضح ذلك في قوله: "... كل جسد هو آلة، والآلات مصنوعة من قبل الصانع الإلهي هي الأفضل إحكاما وإن لم تكف مع ذلك أن تكون آلات، فليس هناك إن لم تنظر إلّا إلى الجسد أي فرق مبدئي بين الآلات المصنوعة من قبل البشر، والأجساد الحية التي أنشأها الله. إنه ليس هناك إلّا فرق من حيث الإتقان والتعقيد"³.

نلاحظ بأن فلسفة ديكارت بالغت في تشبيهها للجسد بالآلة، هذه الرؤية الميكانيكية للجسد ترجع إلى اهتمام ديكارت بالطب والتشريح فقد كان التشريح ممنوعا حسب تعاليم الكنيسة وذلك راجع إلى مجموعة من المعتقدات التي ترمي إلى أن الجسد ليس ملكا للشخص بل هو امتداد للكون لذلك فليس من حقنا تجاوز حرمة الكون بتشريح الجسد. مواجهة ديكارت لهذا الفكر المتطرف الذي عرقل تطور الطب في أوروبا دفعه إلى الرد بأفكار لم تسلم هي الأخرى من التطرف وكان هدفها هو تبرير إمكانية تشريح الجسد على اعتبار أنه مجرد آلة.

تصورات ديكارت "للجسد" استمرت في تهميش الجسد ولم تخلّصه من بقايا الفلسفة اليونانية لكنها مع ذلك ساهمت في إقناع العالم بأن الجسد قابل للتشريح وهذه خطوة أسهمت في تطور الطب لرعاية الجسد الذي أصبح موضوعا للاستثمار الداني والموضوعي حيث ازدهر الطب بشكل عام والطب التجميلي بشكل خاص كما ازدهرت تجارة المنتجات التجميلية التي وجدت في الجسد فضاء لتسويق منتجاتها. انعكاسات الفكر الديكارتية على مستقبل الجسد دفعت العديد من المفكرين إلى تقديم وجهات نظر أخرى صبت معظمها في إطار نقد التصورات الديكارتية للجسد وهذا ما سنحاول توضيحه في العناصر الموالية

الجسد عند "فريدريك نيتشه":

أفكار "نيتشه" حول الجسد تضمن ردا واضحا على الفكر الديكارتي ويتضح ذلك في تصريحه بأن البشر ليسوا ضفادع مفكرة وليسوا آلات مشيئة . لذلك فقد دعا الفلاسفة والمثقفين للإصغاء إلى صوت الجسد في كليته أما ذلك العقل الصغير حسب وصفه فما هو إلا آلة للجسد . الجسد إذا هو عقل عظيم⁴ أما بالنسبة للوعي فهو لا يشكل أصل سلوكياتنا وإنما هو مجرد سطح إما الجسد فهو العمق ، إن الوعي مرتبط بنقص في الجسد بمعنى أن الوعي هو قلق ناتج عن نشاط عصبي مبالغ فيه ناتج عن الغريزة التي تعتبر ماهية الإنسان . يشير أيضا إلى أن انخراط الجسد الذي يصفه بعض المفكرين و ينظرون له ما هو في الحقيقة إلا نتيجة للعقل المجرد، لذلك يجب رفض كل أشكال الفصل بين الفكر والجسد والاعتقاد بوحدة النفسي والجسدي⁵ .

أفكار "نيتشه" حول الجسد تجاوزت الثنائية القديمة جسد/روح كما تجاوزت تهميش الجسد وتحقيره بل لقد منحت أهمية كبرى لم تكن موجودة سابقا حيث وصفته بالعقل العظيم وبمحرك الوعي المسؤول عنه

الجسد عند "ميشال فوكو":

ينتقد "فوكو" تلك التصورات التي ترى بأن الجسد مجرد آلة وهو التصور الذي نجده في أعمال عدد من المفكرين ومنهم ديكارت وقد تطرقنا إلى تقديم أهم أفكاره فيما سبق و تايلور صاحب نظرية التنظيم العلمي للعمل والذي طالب بتقنين حركات الجسد لمضاعفة الإنتاجية. "ميشال فوكو" يعتبر من الذين عارضوا هذه الأفكار، حين درس أشكال تمظهر السلطة لتقنين وضبط نشاط الجسد، سواء على مستوى الفعل من خلال الزج القسري به في مؤسسات اجتماعية "فوكو" يعتقد بوجود تواطؤ مسبق بين إرادتي المعرفة والسلطة لتبرير ضبط الجسد وترويضه سعيا إلى للزيادة الإنتاج ومضاعفته. كل هذه المؤسسات كانت في نظره مؤسسات لإخضاع الجسد ومن هذه المؤسسات: الأسرة، المدرسة، المصنع... الخ .

اهتمام "فوكو" بموضوع الجسد كان في إطار رصده لتاريخ المؤسسات وبخه عن البنية العميقة التي تحكم مسار البرجوازية الأوربية حيث اتهم هذه الأخيرة بأنها حملت في ظاهرها أفكارا تنويرية تصدت للفكر الإقطاعي ودعت إلى تحرير الجسد من وصاية الروح واللاهوت والمسيحيين لكنها فالحقيقة سخرت هذا الجسد لخدمة الليبرالية وذلك عن طريق إخضاع الجسد لسلطة المؤسسات الاجتماعية وسلطة المعرفة⁶ .

يقصد "فوكو" في حديثه عن سلطة المعرفة أن الخطاب المعرفي والعلمي هو خطاب أيديولوجي يتخذ من العلم والمعرفة حججا لتبرير مصالح الليبراليين الذين سخرت مؤسسات المجتمع للسيطرة على الجسد وإنتاجيته.

إذا "فوكو" لم يكتف بانتقاد الليبرالية فقط بل ذهب إلى أكثر من ذلك حين شكك في موضوعية الخطاب العلمي مؤكدا خضوع هذا الخطاب إلى مصالح القوى المسيطرة على المجتمع ومؤسساته.

الجسد عند الفينومينولوجيين:

الجسد ليس كيانا مغلقا في ماديته الخالصة، وإنما هو فضاء من نوع يفتح على العالم ويضفي عليه معاني وجوده. هذه هي خلاصة الرد الفينومينولوجي على التهميش الديكارتي للجسد. هذا الاهتمام الفكري بالجسد دعا إليه عدد من المفكرين أهمهم: "مين دوبيران" ثم "هوسرل" و "ميرلوبونتي" و "ريكو".

"فميرلوبونتي" مثلاً في تعريفه للجسد يعتبر أنه: "... الأداة الدالة التي تتصرف بوصفها وظيفة عامة، ومع ذلك توجد وتعرض للمرض ففيه نتعلم عقدة الوجود هذه، وهذه الماهية التي نجدها عموماً في الإدراك. هذا الجسد الفينومينولوجي كان محل اهتمام الفلسفة الفينومينولوجية والأنثروبولوجيا وعلم الأديان وقبلها علم النفس والتحليل النفسي. هذا الأخير حاول إيجاد علاقة بين المظهر النفسي والمظهر الجسدي معطياً الأهمية للقاعدة البيولوجية للجانب النفسي، فمفهوم صورة الجسد التي تمثل وعي الذات بوجودها الجسماني الأولي في العالم تستند على "الأنا الجسدي" الذي يمثل مرجعاً "للأنا النفسي"، أما هذا التمييز بينهما فهو مجرد تمييز إجرائي⁷.

❖ سيكولوجيا الجسد:

يتضح اهتمام علماء النفس بالجسد في تلك الأعمال التي قدمها العديد منهم على غرار "فرويد" و"شيلدر" و"لاكان"، التيار التحليلي في علم النفس ربط الجسد ببناء الذات والشخصية في أكثر من من عمل علمي، لذلك سنعرض أهم هذه الأعمال لنوضح تصورات الجسد في الفكر السيكولوجي الجسد عند "فرويد":

درس "فرويد" الطب وتخصص في علم الأعصاب، لكن تخصصه لم يمنعه من أن يكون مؤسساً لعلم النفس والتحليل النفسي. فقد حاول فهم النفس البشرية ليس فقط من خلال الشعور وإنما من خلال الجوانب اللاشعورية وهي الأكثر تأثيراً في الشخصية. هذه الشخصية قسمها "فرويد" إلى ثلاث نظم أساسية هي: **الهو، الأنا، الأنا الأعلى.**

الهو Id:

هو النظام الأصلي للشخصية كما أنه الكيان الذي يميز منه الأنا والأنا الأعلى، ويسمى "فرويد" **الهو** "الواقع النفسي الحقيقي" على اعتبار أنه يتكون من كل ما هو موروث وموجود سيكولوجياً منذ الولادة بما في ذلك الغرائز، فهو ذا صلة وثيقة بالعمليات الجسمية التي يستمد منها طاقته. ليكون بذلك مستودع الطاقة النفسية والعامل على خفض التوتر وهذا وفقاً لمبدأ تحقيق اللذة وتجنب الألم الناتج **الأنا Ego:** هو الجهاز الإداري للشخصية، فهو يعمل وفق مبدأ الواقع وفقاً للعمليات الثانوية، والعمليّة الثانوية هي التفكير الواقعي، فالأنا بواسطتها يختبر الواقع وهو يضع خطة لإشباع الحاجة، وبالتالي يستطيع التوفيق بين المطالب الغريزية للفرد وبين ظروف البيئة المحيطة به.

الأنا الأعلى Super Ego:

الممثل الداخلي للقيم الاجتماعية التي يفسرها الأبوين للطفل ويحاولان فرضها من خلال عمليتي الثواب والعقاب، ليسعى الطفل إلى تجنب العقاب والحصول على الثواب من طرف الوالدين. بهذا الشكل يتكون الأنا الأعلى فيتحوّل الضبط الصادر عن الوالدين إلى ضبط ذاتي يحاول من خلاله كبح مطالب **الهو** المرفوضة اجتماعياً، كما يحاول إقناع الأنا بإحلال الأهداف الأخلاقية محل الأهداف الواقعية، إلى بلوغ الكمال. من خلال عناصر الشخصية التي ذكرها "فرويد" يمكننا القول بأنّ الشخصية هي حصيلة التفاعل الحاصل بين العنصر البيولوجي "الهو" والعنصر النفسي "الأنا" والعنصر الاجتماعي "الأنا الأعلى". وهذا أيضاً ما يظهر لنا من خلال مراحل النمو التي وضعها "فرويد" والتي سنعرضها الآن فيما يلي:

1- المرحلة الفمية:

تكون خلال السنة الأولى من العمر، وفيها يكون الفم هو المصدر الرئيسي للذة فهو المسؤول عن القيام بوظيفة الاستجابة للطعام واستقباله وكذا ابتلاعه وبصقه، كما أنه المسؤول عن المضغ والعض بعد نمو الأسنان. في هذه الفترة يكون الطفل معتمدا اعتمادا كلياً على الأم في إشباع حاجاته.

2- المرحلة الشرجية:

هذه المرحلة تستمر إلى السنة الثانية من العمر ويتعلم الطفل خلالها إرجاء لذة تخلصه من التوتر الشرجي وفقاً للتدريب الذي علمته عليه الأم. هنا تؤثر طريقة التدريب على استجابات الطفل المستقبلية، فإذا كانت طريقتها شديدة الصرامة والكبت قد تؤدي إلى قبض الطفل على فضلاته وبالتالي إمساكه، أو أنه يخرجها في أوقات غير مناسبة كتعبير عن غضبه. أما إن كانت الأم تتودد إلى الطفل ليخرج فضلاته، ثم تبلغ في مديحه فهذا يدفعه إلى التفكير في أهمية نشاطات الإخراج ومن ثم نشاطات الخلق والإبداع عموماً.

3- المرحلة القضيية:

تكون ما بين ثلاث وخمس سنوات. هذه المرحلة من النمو تتميز بأهمية المشاعر الجنسية والعدوانية المرتبطة بوظائف الأعضاء الجنسية، التي تمهد لظهور عقدة أوديب، وهي تلك الشحنة الجنسية التي تستهدف الوالد من الجنس المقابل وتلك الشحنة العدوانية التي توجه إلى الوالد من نفس الجنس، علماً أنّ تاريخ هذه العقدة ومصيرها يختلف عند الجنسين. فإذا كان الطفل من الجنسين يحب أمّه في البداية لأنّها من تشبع رغباته بينما ينقم على الأب لأنّه ينافسه في هذا الحب، فإنّ هذه المشاعر تستمر لدى الذكر بينما تتغير لدى الأنثى فبالنسبة للذكر تؤدي رغبته المحرمة الموجهة نحو الأم إلى الخوف من عقاب الأب، هذا العقاب يلحق بأعضائه التناسلية لأنّها مصدر مشاعره نحو الأم. هذا الخوف من الخصاء يسميه "فرويد" بخصر الخصاء الذي يؤدي إلى كبت الرغبة الجنسية في الأم والعدوان نحو الأب فتتحول مشاعره الشهوانية الخطيرة إلى مشاعر رقيقة وغير خطيرة موجهة نحو الأم وبهذا يتشكّل الأنا الأعلى كوريث لعقدة أوديب. أما بالنسبة إلى البنت فإنّ تطور عقدة أوديب يكون أكثر تعقيداً لديها، فهي تغير موضوع حبها الأصلي وهو الأم بموضوع جديد هو الأب، وهذا بعد أن تكتشف أنّ الولد يمتلك عضواً جنسياً ممتداً هو القضيب في حين تمتلك هي تجويفاً. هذا الاكتشاف يجعلها تحمّل أمّها مسؤولية خصائنها ممّا يضعف شحنتها الخاصة بالأم فتحوّل حبها إلى الأب لأنه يمتلك العضو الذي حرمت منه. وبالتالي يمكنها أن تشاركه فيه لكن مشاعر الحب هذه تكون مرفقة بمشاعر الحسد لكل من يمتلك هذا العضو القيم. حسد القضيب لدى البنت يقابله حسد الخصاء لدى الولد، هنا يتضح أنّ عقدة الخصاء لدى البنت ناتجة عن اعتقادها بفقدان شيء ذا قيمة، بينما لدى الذكر هي ناتجة عن خوفه من فقدانه. إذن فعقدة الخصاء لدى البنت تؤدي إلى ظهور عقدة أوديب بينما لدى الذكر تؤدي إلى كبت أو تغيير عقدة أوديب. وبالتالي فعقدة أوديب لديها تستمر وإن تعرضت لبعض التعديل الذي يفرضه الواقع.

المرحلة التناسلية:

خلال هذه المرحلة يحاول الشخص الحصول على اللذة بالتنبيه الذاتي للجسد لكن هذا الطابع النرجسي للذة يتحول تدريجياً إلى شحنات موجهة للآخرين تؤدي إلى أشكال إضافية من اللذة الجسمية⁸. بين "فرويد" علاقة الجسد

بالذات أو بالأنا من خلال تصريحه بأنّ الأنا هو: "هوية جسدية ليست فقط هوية مظهرية، وإنما هي هوية تؤدي إلى إسقاط ما هو مظهري، ليكون بذلك الجسد وعاء يفصل الداخلي عن الخارجي ويمنح للفرد حدود فردانيته كما أنّه يمكن من تحديد منطقة التواصل بين العضو ومحيطه، فيكون بذلك الجسد ظاهر الفرد الذي ييدي إدراكاته المرتبطة بالداخل وكذا إدراكاته المرتبطة بالخارج

إذن "فرويد" يرى بأنّ الدور الأساسي للجسد أو بصورة أدق للجلد هو تأسيس الحدود بين الذات والموضوع. إذن بعد عرضنا لأفكار "فرويد" يمكننا الإشارة إلى أنّه أعطى أهمية كبيرة للجسد حين ربط كل من مراحل نمو الشخصية بأعضاء الجسد (الفم، الشرج، القضيب، الجهاز التناسلي). مبينا أهمية كل عضو في بناء عناصر الشخصية التي يعتبر "الهو" قاعدتها وأول عنصر فيها، كما أنّه أكثر العناصر ارتباطا بالجانب البيولوجي للفرد. بحيث يكون نقطة بناء الجانب النفسي لهذه الشخصية، هذا دون إهمال العنصر الاجتماعي الذي يكون دائم الحضور. لكن الملاحظ هو أنّه رغم اعتراف "فرويد" بأهمية العنصر الاجتماعي في بناء الشخصية إلّا أنّه لم يعطه الأهمية الكافية عند تفسيره للمرحلة القضيبية، حين اعتبر العضو الجنسي الذكري (القضيب) هو أصل الفروق بين الجنسين. في حين أنّ الفروق بين الجنسين ليست مجرد فروق بيولوجية تبني الفروق النفسية، لأنّ القضيب أو القضيب الرمزي كما يسميه "لاكان" ليس قيمة بيولوجية فقط وإنما هو قيمة ثقافية تاريخية لقضيب متصور ذهنيا.

الجسد عند "شيلدر" (1968) P. Schilder:

أفكار "فرويد" حول الجسد لقيت الدعم من قبل العديد من المفكرين على غرار "شيلدر" الذي يعتقد ب أنّ صورة الجسد لا ترتبط بحقيقته التشرّحية بقدر ما ترتبط بكونه مصدرا لبناء تصورات الذات، وقد أكد على أنّ صورة الجسد ليست عبارة عن مجموعة من المعطيات المدركة الثابتة، ولكنها عبارة عن مجموعة من التصورات المبنية عبر التطور الرمزي من خلال أحاسيس اللذة واللذّة التي ترافق "الليبيدو النرجسي" المرتبط بأجزاء مختلفة من الجسد، والمتمثلة في: الفم، الشرج، العضو التناسلي. إذن هذه الأعضاء الجسدية مرتبطة من جهة بالوظائف الحيوية (التغذية، التنفس والإخراج) والمرتبطة من جهة أخرى بالوظائف الحسية الشبقية المسؤولة عن النشاطات النزواتية ذات الامتداد العاطفي. وأضاف أيضا بأنّ صورة الجسد ترتبط بدرجة الأهمية التي يعطيها الآخرون لمختلف أجزائه حيث تظهر هذه الأهمية في السلوك، الكلام وطريقة اللمس. إذن صورة الجسد ترتبط بتصورات الآخرين وهذا لأنّ الفرد يتقمص الآخرين بطريقة لا شعورية فيرى ذاته انطلاقا من رؤية الآخرين له .

الجسد عند "جاك لاكان":

اتضح علاقة الذات بالجسد لدى كل من "فرويد" و"شيلدر" وستتضح أكثر عند "لاكان" الذي يربط هو الآخر بين الجسد والذات حين يعتبر بأنّ مرحلة المرأة هي النواة الأساسية لتكوين الأنا، إذ أنّ الطفل ومنذ اكتشاف صورته على المرأة يدرك بأنّه موضوع منفصل عن الأم بعد أن كان يعيش في حالة اندماجية في جزء من جسد الأم "الثدي"، ثم يدرك كلية الأم فيتعمّم حبّه من الجزء إلى الكل. "لاكان" يقر في نظريته بأنّ مفهوم الأنا كاستقلالية ذاتية تشير إلى الجسد وما يملكه عبر وجوده في هذه المرحلة. إذن البنية الذاتية تنطلق منذ الوهلة التي ينظر فيها الطفل إلى صورته في المرأة فيعتبرها الآخر ثم يحاول أن يداعبها كما يداعب طفلا يشبهه، يبكي إذا بكى ويضحك إذا ضحك ويحاول أن

يسيطر عليه فيعيب الصورة ثم يحضرها بهدف امتلاكها. وهنا لابد من تدخل الأم لتعريفه بصورته المرئية حتى يتمكن من التماهي.⁹

❖ سوسيولوجيا الجسد:

الجسد عند "بيار بورديو" Pierre Bourdieu " هو عالم اجتماع فرنسي وباحث أنثروبولوجي معاصر متميز، نظرا لما قدمه من إسهامات في علم الاجتماع النقدي سواء من حيث النظرية أو من حيث المنهج. ومن أعماله النقدية الهامة نجد مقارنته النظرية حول موضوع الجسد التي تضمنها كتابه "الهيمنة الذكورية" وهي عبارة عن دراسة ميدانية خصت منطقة القبائل الجزائرية، وقد اختار "بورديو" هذه المنطقة تحديدا لأنه يعتبر أن التقاليد الثقافية التي يجري الحفاظ عليها في هذه المنطقة تشكل نموذجا للتقاليد المتوسطة وأيضا لأن كل الجوّ الثقافي الأوروبي يشارك في هذه التقاليد. من خلال هذا الكتاب سنلخص أهم الأفكار التي قدمها "بورديو" حول الجسد.

حسب ما أشار إليه "بورديو" فإن العالم الاجتماعي يبني الأجساد بوصفها واقعا متجانسا وبوصفها مستودعا لمبادئ الرؤية والتقسيم الجنسية، وإذا كانت الأنثروبولوجيا قد اكتشفت أن التعريف الاجتماعي للجسد وبخاصة أعضائه الجنسية هو نتاج بناء اجتماعي، فإن "بورديو" يذهب إلى أبعد من ذلك في محاولة لعكس العلاقة بين الأسباب والنتائج التي سعى إلى تفكيكها، علما أن هذه العلاقة يتم بواسطتها تطبيع البناء الاجتماعي، فهو يذهب إلى أن الاختلافات الظاهرة بين الجسد الأنثوي والجسد الذكوري بإدراكها وبنائها وفقا للمخططات العملية للرؤية المتمركزة حول الذكورة هي التي تصبح أكبر ضامن لا يقبل الجدل للدلالات والقيم المترافقة مع مبادئ هذه الرؤية.

إذن فليس القضيبي (أو غيابه) هو أساس رؤيتنا للعالم، وإنما رؤيتنا للعالم هي التي تؤسس للقضيبي من خلال تنظيمها للتقسيم إلى نوعين مترابطين مذكر ومؤنث. والنتيجة هي أن يبدو الاختلاف البيولوجي بين الجنسين أي بين الجسدين المذكر والمؤنث خاصة الاختلاف التشريحي بين العضوين الجنسيين كتبرير طبيعي للاختلاف المبني اجتماعيا بين نوعي الجنسين، خاصة للتقسيم الجنسي للعمل والتوزيع بالغ الصرامة للنشاطات الموكلة لكل جنس من الجنسين. ولما كان لهذه النشاطات وخطتها وأدواتها إنه بنية الفضاء بالتعارض بين مكان الندوة أو السوق الخاص بالرجال، وبين المنزل الخاص بالنساء وحتى داخل المنزل يقسم الفضاء ليكون المذكر بمقر الإقامة والجزء المؤنث بالإسطبل والماء والخضروات. كذلك بنية الزمن يوم العمل، السنة الزراعية أو دورة الحياة بلحظات الانقطاع المذكرة وفترات الحمل الطويلة المؤنثة

إذن فالتقسيم الجنسي منقوش من ناحية في تقسيم النشاطات الإنتاجية التي تربط بها فكرة العمل. وكذلك بشكل أوسع في تقسيم عمل الحفاظ على رأس المال الاجتماعي ورأس المال الرمزي الذي يمنح الرجال احتكار كل النشاطات الرسمية العامة وكذا احتكار تبادلات الشرف، تبادلات الكلام في اللقاءات اليومية وتبادلات الهبات والنساء والتحديات والقتل، وهو منقوش من ناحية أخرى في استعدادات النساء اللاتي يحتزن هذا الاقتصاد إلى حالة موضوعات التبادل.¹⁰

خاتمة:

نستنتج من خلال عرضنا لتصورات الجسد البشري في الفكر الحديث الديكارتي والفينومينولوجي بأنّ الجسد ليس حقيقة بديهية غير قابلة للنقاش، وإنما هو حقيقة مبنية ومتصورة ذهنياً واجتماعياً، تعكس ثقافة المجتمع وخصوصيته الفكرية وكذا تصوره للإنسان وللكون بصفة عامة. وهذا ما جعل الجسد لا يتعدى بعده البيولوجي في الفكر الديكارتي في حين استطاع تجاوز بيولوجيته في الفكر الفينومينولوجي ليصبح الجسد ببعده الرمزي موضوعاً للعلوم الإنسانية والاجتماعية التي سعت إلى صياغة تصوراتها النظرية حول الجسد على غرار ما جاء به "بيار بورديو" كعالم أنثروبولوجي وسوسيولوجي أثبت في دراساته بأنّ ما يبدو طبيعياً في الجسد ما هو إلاّ بناء اجتماعي يبرر وجوده بالطبيعة، فاختلقت نظرتهم هذه عن أفكار فرويد الذي اعتبر بأنّ القضيبيّ مركز الجسد ومحور وجوده في العالم. لكن أفكار "فرويد" هذه لم تواجه انتقادات "بيار بورديو" فحسب وإنما واجهت أيضاً انتقادات علماء النفس المهتمين بموضوع الجسد أمثال "جاك لاكان" الذي يعتقد بأنّ القضيبيّ هو قضيبيّ رمزيّ قيمته الحقيقية ليست بيولوجية وإنما هي قيمة ثقافية تاريخية، ساهمت في بناء تصورات الجسد.

ملامح الفكر الحديث إذا تجاوزات ثنائية الجسد /الروح حيث دافعت عن كلية الإنسان ووحدته كما بينت بأنّ الجسد هو العنصر الأهم في تكوين الذات الإنسانية المتميزة عن باقي الذوات.

قائمة المراجع

1. سمية بيدوح، فلسفة الجسد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2009، ص 13.
2. هشام العلوي، الجسد بين الشرق والغرب نماذج وتصورات، دار الزمن، المغرب، 2003، ص 48.
3. دافيد لو بروثون، أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، ترجمة محمد عرب صاصيليا، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ص 30-70.
4. هشام العلوي، مرجع سابق، ص 61.
5. سمية بيدوح، مرجع سابق، ص 85.
6. هشام العلوي، مرجع سابق، ص 61.
7. فريد الزاهي، الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، إفريقيا الشرق، المغرب وبيروت، ص 22-25.
8. ك. هول. وح. لندرزي، نظريات الشخصية، ترجمة فرج أحمد فرج، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، ص 76-79.

⁹. Marc Edmond , psychologie de l'identité, Dunod ,paris,2005,pp41-43.

¹⁰. Pierre Bourdieu, La domination masculine ,édition du seuil, paris ,p p07-71.